ذات الثوب الأرجوانى

للأستاذ ابرهيم عبد القادر المازنى

(تنبيه : الكلام كله تخيل ولا أصل أو حقيقة له)

— ٨ —

لو كانت ذات الثوب الأرجوانى مع « موسى » — عليه السلام — لمّا ذهب إلى فرعون يدعوه إلى ربه لكان الأرجح أن يؤمن ولا يكفر ، ولكان من المحقق — عندى على الأقل — ألا ينزل بمصر ما نزل بها من البلايا والضربات والمصائب الكبَر . ولكن موسى — عليه السلام دائماً — لم يكن على ما يؤخذ من تاريخ حياته — يعرف مبلغ تأثير الأرجوانيات فلم يسأل الله أن يشد أزره إلا بأخيه هارون ؛ وقد فطن قومه إلى هذه الحقيقة ، ولكن بعد خراب البصرة . على أنى لا أرى ذات الثوب الأرجوانى تقيني شيئاً ولا أعرفها تدفع عنى بلاء . وإن المكاره جميعاً لتحيق بى تحت عينها ومع ذلك لا تحرك ساكناً ، ولا ترفع اصبعاً كابحاً ، فأى حب هذا بالله ؟ ؟ .... لكأنى بها تشمت بى ويسرّها أن يصيبنى كل يوم سوء ، وكأنما تظن أن حسبى كلما مسنى ضرّ أن أنظر اليها وهى قاعدة على كرسيها ، وإحدى ساقيها على الأخرى ، وذراعاها على حافة الشرفة ، وخدها على ظهر كفها ، وأصابعها تنقر على الحجر ، وقدمها الدقيقة تتحرك متابعة نقر الأصابع ، كأنها تحلم بصوت أو كأنما تدندن لنفسها بصوت خفيض ... وليتنى مع ذلك أسمع !! إذن لكان لى بعض العزاء ... ولقد سمعت صوتها إذ تكلم جارتها أو تدعو أخاها — أو هو لا بد أن يكون أخاها — ولكنى لم أسمع غناءها . وما من شك عندى فى أنه شجى وأن صوتها رخيم فانه خالص كالفضة . ولكنها بخيلة ... جدا ...

وآخر ما حدث مما لم تدفع عنى شره أنى بعد أن كتبت فصلا من هذه الفصول كان فى البيت لفيف من الأهل والأنسباء — قبحهم الله جميعاً — فقالوا ما هذا ؟ قلت : « فصل فى ذات الثوب الأرجوانى » . قالوا : من عساها تكون ؟ فكرهت هذا الفضول منهم — ولكنهم يحسبون أن كونهم أقارب يشفع لهم فى كل فضول — غير أنى كتمت مقتى لفضولهم — لا لهم هم — وقلت : « إنها من مخلوقات الخيال » فجعل هذا يزوم ، وذاك يحدق فى وجهى ، وثالث يقول لى : « عينى فى عينك ؟ » ورابع يقول : « طبعاً . طبعاً » إلى آخر ذلك . ثم اقترح واحد منهم — هو أخبثهم — أن أقرأه لهم ، فقلت : حتى ينشر . قالوا : بل الآن وهل ثم مانع ؟ وما الفرق بين أن نسمعه الآن وأن نقرأه مطبوعاً فى « الرسالة » ؟ ؟ فاقتنعت — لا أدرى كيف ؟ — وشرعت أقرأ لهم ، وليتنى ما فعلت فقد كنت كأنما بعت نفسى ..

وقال أحدهم : « اسمع . . ما دام أن الأمر كما تقول فان من الواجب تغيير كذا وكذا وإبداله بكيت وكيت . . . »

فقلت : « هذا مستحيل . . لقد كتبت ما خطر لى وانتهى الأمر »

قال : « كلا . . يجب أن تجعل الرجل الذى تتحدث بلسانه أرق مما يوهم كلامك »

قلت : « ولكنه هكذا . . وقد خلقه الله كذلك فكيف أشوهه أنا ؟ ؟ »

قال : « إذن هو شخص حقيقى . ؟ »

قلت — وقد أحسست أنى وقعت — « يا أخى ومالك أنت ؟ . إن صورته فى ذهنى هى كما أصف . . ولست أستطيع أن أغيرها إلا إذا استطعت أن أغير طريقة تفكيرى وصبغة خيالى . . وهذا شىء لا قبل لى به فأقصر بالله عليك »

الحكومى : وفى كلمة واحدة هو قد وُلد من بطن الحكومة ...

ألا ترى أن الشعب لو استردّ سلطته الكاملة وأن الناسَ لو أيقنوا أن هذه الألقاب ألفاظٌ فارغة من الأمر والنهى والوسيلة والشفاعة لما بقى من يعبأ بها ولكان حاملها هو أول من يسخر منها ؟ فهى إذن شعبذة من الحكومة وتضليل فى مثل هذا الرجل الأمىّ ، وهى ضربٌ من التهويل والمبالغة فى سواه من الكبراء والعظماء : كأن الوزير الذى يلقب بالباشا يجعل فيه لقبه وزيرين ، وكأن مثل هذا الأمىّ المنفل يجعل فيه لقبه شخصاً آخر غير الأمىّ المنفل

أنا قلما رأيت رجلاً يحتاج إلى ألقاب يتعظم بها إلا وهو لا يستحقها ؛ وقلما رأيت رجلاً يستحقها إلا وهو لا يحتاج إليها ؛ فأين يكون موضع هذه الرتب والألقاب ؟

(سيدى بشر باسكندرية)

فشرعوا يتهكمون ويسخرون . وقال أحدهم : « هل قلت إن أنفه أقنى ؟ ؟ »

قلت : « كلا فانى أستقبح هذا النوع من الأنوف »

قال : « إنى واثق أنك كنت تتصورنى وأنت تصف هذا العاشق المدنف ، ولهذا أرى من حقى أن أستشار فيما تكتب عنه »

قلت : « إن عاشقى ليس مدنفاً ... هو على العكس صحيح معافى ... ثم إنك آخر من يصلح لهذه المواقف الانسانيـة ... ولست مجنوناً حتى أصفك فى قصة »

قال : « هل تسممون ؟؟ لا بأس !. عض اليد التى تطعمك وتغذيك !!. هذا جزاء من يسمح لك أن تصور شخصيته البارعة .. لا بأس ! ! ولكنى لا أفهم كيف تكون هـذه الحبيبة عصرية ولا يكون لها كلب ؟ . أو على الأقل جرو صغير ؟؟ .. نعم لا بد من كلب فقم أدخله فى القصة »

فقلت بغيظ : « يكفى أنك ستقرأها فيتحقق مرادك »

فلم ينهزم وقال : « صحيح ؟ ؟ ولكن هذا لا ينفى أن الفتاة المسكينة لا كلب لها إلا على بعـد ثلاثين متراً ! ! كلا . هذا لا يليق ! ! اسمع منى وغير ما كتبت .. وها أنذا مستعد أن أساعدك .. إن المناسبة توجد الرجل الصالح .. وأنا أسألك باخلاص أى شىء أوفق من أن أمد يدى اليك لأشد أزرك ؟ وهل يليق بى أن أقعد ساكتاً وأنا أراك تخلط وترسم لنا صورة رجل وامرأة لا يمكن أن يمشى مثلهما فى الدنيا ؟ ؟ كلا — على التحقيق ... (والتفت الى الموجودين وسألهم) أهذا ينتظر منى ؟ ؟ . »

ولأول مرة فى هذه الجلسة سررت إذ سمعتهم جميعاً يقولون بلسان واحد « نعم »

ولكنه لم يعبأ بهم ومضى يقول : « هأنذا .. أجىء فى اللحظة الحافلة بالاحتمالات متنكراً فى زى رجل هرم وفى قدمى حذاءان قد يليقان بأبينا آدم — فقد زعموا أن طوله والعياذ بالله أربعون متراً — وبفم ليس لحلقه سقف .. حسن .. ولا يرانى أحد .. ولا تفطن الى وجودى الفتاة ذات الثوب الأرجوانى ، على الرغم من حذائى المهولين ... فأخرج منهما ، وأتسلق أنابيب المجارى حتى أبلغ الشرفة التى تتخذها ذات الثوب الأرجوانى ، غرفة جلوس ، وحجرة استقبال ، وبستاناً للنزهة ، وملعباً للتنس ومرصداً للأفلاك !! فأفاجئها وهى قاعدة تفكر فى حبيبها الخروف الذى لا يستطيع حتى أن يحرك إصبعاً يشير به إليهـا وأقول لها بخ بخ .. فتفزع وتصيح باى .. باى .. »

فلما سكنت الضجة قلت : « إنى أكتب قصة ولست أصف ملعب مهرجين أو سيرك حيوانات »

قال : « ما أحسن هذا الأدب ! ! أنت لا تستطيع أن تفهم المواقف الروائية ولهذا ... »

فصاحت إحدى الفتيات الموجودات : « هس .. أظن أن هذه هى ذات الثوب الأرجوانى .. الحق إنها جميلة .. ويجب أن نعترف أنه معذور »

فعاد اللعين يقول : « آه .. لا شك .. لا شك .. جميلة جداً .. ولكن انظروا ماذا صنع بها ؟ ؟ لقد صارت فى يده .. أعنى فى وصفه لها .. ثوباً أرجوانياً لا فتاةً من لحم ودم .. ولو أنه استمع لى .. »

وهنا ضاق صدرى ونفد صبرى ولم تبق لى طاقة على احتمال هذه السخرية فتناولت الورقات التى كانت مكتوبة وكنت أقرأها لهم ومزقتها كل ممزق

* * *

وليس هذا سوى مثل لبعض ما ألقى فى سبيل ذات الثوب الأرجوانى ، وهى لا تعبأ ولا تبالى ! ! والحق أقول إنى لم أعد أفهم شيئاً من أمرها . فأما أنها معنية بى فهذا ما لا يخالجنى شك فيه . ولقد حرصت مرات على أن أتبين هل فى العمارة التى أسكن إحدى شقاتها من يغازلها أو يناجيها أو يصنع ما يصنع المعجب أو العاشق أو المفتون ، فلم أجد أحداً . وكثيراً ما انحدرت إلى الشارع ووقفت على الرصيف الآخر المقابل لرصيفنا ونظرت إلى عمارتنا ، وقد وجدت فى كل مرة أن النوافذ جميعاً إما موصدة أو لا أحد فيها . ثم إنى أعرف متى يكون سكان بيوتهم ومتى يخرج كل منهم ؛ فقد لاحظتهم جميعاً وعرفت عاداتهم — حتى الشبان اللاعبين الذين تخشى مزاحتهم — فلا أحد هناك تنظر اليه أو ينظر اليها سواى فى هذه العمارة الضخمة ذات الطبقات السبع . فهى لا شك تعنينى وحدى بكل ما يبدو عليها من ارتياح واشمئزاز ، ومن نفور واقبال ، وأنا المقصود بكل ذلك . ومؤدى هذا أن لها عناية بى ، وليس المهم أن تكرهنى أو تحبنى فان المآل واحد فى الحالتين ؛ ومتى نجح الرجل فى لفت المرأة اليه فانه يستوى أن تظهر له البغض وأن تبدى المودة ؛ فان المهم أنها صارت تعنى به ، وأنها أصبحت مشغولة بأمره ، ولا بد أن يؤدى هذا إلى الحب آخر الأمر . فليس للحب أول عند المرأة إلا العناية

مهما كان باعثها والداعى إليها ، ولا ريب فى عنايتها بى . بل فى وسعى أن أقول وأنا آمن ومطمئن إنها تدرسنى فى الصحة والمرض ، والسرور والحزن ، والضحك والكآبة ، والجد واللعب . بل هى ترصد كل حركة لى ، وكل إشارة ، وتتبع ما يصدر عنى وما يكون منى ما دمت بادياً لها ، وقد كنت أمس أنظر من الشرفة إلى الطريق وأتأمل الرائحين والغادين وأسرّى عن نفسى بمناظر الناس وما يكون منهم ، فاتفق أن رأيت فتاة فى ثوب بنى محبوك وحذاءين خيّل إلىّ أن أحدهما أبيض والآخر أسود ، فاستغربت أن تلبس فتاة حذاءين مختلفى اللون ، ودعوت إحدى من فى البيت إلى النظر فوقفت مستغربة مثلى ، وكانت الفتاة تروح وتجىء على الرصيف فى انتظار الأمنيبوس ، وقد أبطأ عليها فطال تمشّيها أمامنا ، وطال عجبنا من حذائيها المختلفين ، وكنت أشير اليها وأنا أتحدث عنها ثم رفعت رأسى إلى شرفة الأرجوانية فاذا فتاتى قد نهضت وانحنت تطل على هذه الاعجوبة ، وقد ظهر لنا أن الحذاءين ليسا مختلفين وأن كلا منهما نصفه أبيض والنصف الآخر أسود . ولما كانت الفتاة تسير وجانبها إلينا فانه لم يكن يبدو لنا من لونى كل حذاء إلا جانب واحد ، ولهذا ظننّاها بالغت وأسرفت فى الأناقة الى حد اتخاذ حذاءين : واحد أبيض ، والثانى أسود

أريد أن أقول إن بان الأرجوانية إلىّ — لاشك فى ذلك — وأن عينها على كل حركة لى وأنها تتعقب إشاراتى — وكلامى أيضاً — وتحاول أن تدرك المقصود منها والمراد بها ، ولم أقص حكاية الحذاءين وصاحبتهما إلا على سبيل التمثيل . وثم قصص أخرى تجرى هذا المجرى وتؤدى إلى هذه الدلالة ، وفى ذكرها تطويل لا موجب له . ومع ذلك تجاهد ذات الثوب الأرجوانى أن تخفى حبها — أو على الأقل عنايتها الشديدة — وتروح تغالطنى فتبدى لى صفحة الاعراض بعد أن تشير لى بوردة وتطمعنى بهذه الايماءة الرقيقة . وما أكثر ما تنتفض قائمة كأنما شكها أحد بسيخ محمىّ وتخرج ثم لا تلبث أن تعود ضاحكة مشرقة الديباجة ! ! ويجن الليل فتجعل من شرفتها مرصداً لأنها هى فى الظلام وأنا فى النور . وتظن أنى لا أراها . وأنا يحلو لى أن أجلس فى الصيف فى شرفتى وأتعشى فيها أيضاً ، فان للغرف حارة حامية كاوية ، كنار الله الموقدة ، والعياذ به تعالى

وليس أحلى من ليالى الصيف إذا لم يركد الهواء . فاذا جلست فى شرفتى جعلت ذات الثوب الارجوانى تراعينى من مكمنها المظلم وهى تحسب أنى غافل عنها ، أو أنى لا أرى فى الظلام . ولها العذر . ومن أدراها أن لى عيناً كعين القطة ؟ — ترى فى الظلمة كما ترى فى النور ... وأحسب أن الارجوانية قد صارت تعرف كل شىء عنى فليس عندى ما أكتمه . وإذا كان أحد من خلق الله يؤمن بالسر فانى لا أومن بذلك ، ولا أعتقد أن فى الدنيا شيئاً يبقى سراً مكتوماً . ولهذا أرى أن من العبث أن أحاول كتمان أمر . وما دام ليس هناك ما يخزينى فلماذا أتكتم وأتستر ؟؟ ولابد أن يعرف الناس ما تحاول إخفاءه ، فأولى بك أن تدعهم يعرفونه منك اتقاء للتشويه ، واجتنابا للغلط وسوء التصوير . ولكنى لا أعرف عنها إلا القليل البادى لأنها فتاة وليست رجلاً مثلى . وللرجل من الحرية ما ليس للمرأة . وقد لا يضير الرجل أن يعرف عنه الناس أنه عاشق ، ولكن فتاة صغيرة غضة السن قد يضيرها ذلك ، ولا سيما إذا كانت لا تعرف آخرتها مع الرجل الذى ترى قلبها مجذوباً إليه . ومن هنا أعذرها ، ولكن الذى لا أستطيع أن أتبين وجه العذر فيه أو الحكمة هو هذا التقلب ، فانها تارة ترضى وأخرى تغضب ، ومرة تقبل وطوراً تنفر . وإنها لتقبل أحياناً حتى لا تبقى عندى ذرة من الشك فى سروزها بحبى لها وحتى لأحس برغبة شديدة فى أن أقفز من النافذة إذ يخيل لى فى هذه اللحظات أنى أستطيع أن أطير إليها من فرط الخفة والسرور ، ثم تعرض وتنفر فيثقل على نفسى ذلك حتى لأهم بأن أضرب حجارة الشرفة بيدى وأركلها برجلى كأنها هى المسئولة عما أرى من إعراضها .. ولا سبب أعرفه لاقبالها ولا لاعراضها فما بيننا أكثر من النظر .. ولو شاءت لكان بيننا ما يختصر هذه الثلاثين متراً ويجعلها متراً أو نصف متر أو شبراً أو أقل من ذلك .. ولكنها لا تشاء . وأكبر الظن أن ليس لمشيتها دخل فى الأمر وأن رغبتها لا تقدم أو تؤخر .. كان الله فى عونها .. وفى عونى أنا أيضا ، فان ضيق صدرها بما تجد من القيود التى حولها ينقلب على أم رأسى أنا .. وما لى ذنب ولكن العامة صدقوا فى قولهم « ضربوا بتاع الكبرى ... »

ابرهيم عبد القادر المازنى

(تنبيه — وقع خطأ مطبعى فى أبيات لى قديمة رويتها فى الفصل السابق فكتب الحياة (بالتاء المربوطة) الحياء بالهمزة ، وكذلك النباة (تاء مربوطة) كتبت بالهمزة . والصواب فى الاثنين بالتاء ، وتنطق فى البيتين هاء لا أدرى لماذا ، وشعرى لا ينقصه أن يزيد فساداً بالخطأ المطبعى — المازنى)